١٨ ـ المقتدر

هو جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بن أحمد بن المتوكل وهو أخو المكتفي وأمه أم ولد اسمها شغب (ولد سنة ٢٨٢) وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه ولم يزل خليفة إلى أن قتل في (٢٨ شوال سنة ٣٢٠) (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) فتكون مدته (٢٤ سنة و١١ شهراً و١٦ يوماً).

كان يعاصره في الأندلس عبد الله بن محمد إلى (سنة ٣٠٠) ثم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر المتوفى (سنة ٣٥٠) وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين من بني أمية بالأندلس.

ويعاصره بإفريقية عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧ ـ ٣٢٢).

ويعاصره في بلاد الروم لاون السادس ثم أخوه الإسكندر بن بسيل (٩١١ ـ ٩١٢) ثم قسطنطين السابع بن لاون السادس وكانت تدبره أمه زوا ثم رومانس الأول الأرمني الذي اغتصب الملك (سنة ٩١٩) ولم يبق لقسطنطين إلا الاسم وشارك رومانس في الملك أبناؤه خريستوف واسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرف به تصرف مالك (٢٥ سنة) إلى (سنة ٩٤٤) فأغرى قسطنطين السابع ابني رومانس وهما اسطفانس وقسطنطين الثامن بالمناصبة لأبيهما فثارا به وثلا عرشه وحبساه في دير حيث مات (سنة ٩٤٨) وعاد قسطنطين السابع إلى ملكه (سنة ٩٤٥) حيث مات مستبداً به إلى (سنة ٩٥٩) حيث مات مسموماً على ما يقال.

ويعاصره في فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج ثم روبرت الأول (٩٢٢ ـ ٩٢٣) ثم راوول من أقارب الكاباسيان (٩٢٣ ـ ٩٦٢).

ويعاصره في خراسان وما وراء النهر أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني.

كيف انتخب:

لما ثقل المكتفي كان في منصب الوزارة العباس بن الحسين ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده لأنه لم يكن ولى أحداً العهد في صحته وكان من عادة الوزير أن يسايره إذا ركب واحد من هؤلاء الأربعة الذين يتولون الدواوين وهم أبو عبد الله محمد بن داوود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبد الله وأبو الحسن علي بن محمد بن الفرات وأبو الحسن علي بن عيسى فاستشار الوزير يوماً محمد بن داوود بن الجراح في ذلك فأشار بعبد الله بن المعتز ووصفه بالعقل والأدب والرأي واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فقال: هذا شيء ما جرت به عادتي أن أشير فيه وإنما أشاور في العمال لا في الخلفاء فغضب الوزير وقال: هذه مقاطعة باردة وليس يخفى عليك الصحيح وألح عليه فقال: إن كان رأي الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل فعلم الوزير أنه يعني

ابن المعتز لاشتهار خبره فقال: لا أقنع إلا أن تمحضني النصيحة فقال ابن الفرات: فليتق اللَّه الوزير ولا ينصب إلا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلاً فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعاً فيشره في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ويرجو الثواب فيما يفعله ولا يولي من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقي الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم، فقال الوزير: صدقت ونصحت فبمن تشير؟ قال: أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد فقال: ويحك هو صبي قال ابن الفرات: إلا أنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا. فمالت نفس الوزير إلى مشورة ابن الفرات وانضاف إلى ذلك وصية المكتفي فإنه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه جعفر الخلافة فلما مات المكتفي اختار الوزير جعفراً للخلافة بالاتفاق مع صافي الحرمي ولقب المقتدر باللَّه وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة.

وكأن ذلك لم يرق للناس لصغر سن المقتدر فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن واتفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد اللَّه بن المعتز فراسلهم في ذلك فأجابهم على ألا يكون فيه سفك دم ولا حرب فأخبروه باجتماعهم عليه وأنه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داوود بن الجراح وأحمد بن يعقوب القاضي ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين ثم إن الوزير أراد الانفصال عنهم لأنه رأى حاله صالحاً مع المقتدر وأنه على ما يحب فقام عليه الآخرون فقتلوه، قتله الحسين بن حمدان وبدر ووصيف في (٢٠ ربيع أول سنة ٢٩٦) وفي غده خلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز وحضر البيعة الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى أبي الحسن بن الفرات وخواص المقتدر وكتبت الكتب بذلك إلى العمال ووجه المقتدر يأمره بالانتقال من دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الإمهال إلى الليل. ولم يكن بقي مع المقتدر من القواد إلا مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية الدار. فلما هم المقتدر بالانتقال قال بعضهم لبعض: لا نسلم الخلافة من غير أن نبلي عذراً ونجتهد في دفع ما أصابنا فأجمع رأيهم على أن يصعدوا في المساء إلى الدار التي فيها ابن المعتز ويقاتلوه وعاونهم المقتدر بالسلاح والزرديات وغير ذلك فركبوا في السميريات وأصعدوا في المساء فلما رآهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم وكان قد حصل قبل ذلك أن الحسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم في هذا المأزق ولا يدرى لم فعل ذلك.

فلما رأى ابن المعتز هذه الحال ركب ومعه وزيره الذي اختاره له وهو محمد بن داوود

وهربا وغلام له ينادي يا معشر العامة ادعوا لخليفتكم السني البربهاري (ينسبونه إلى الحسين بن القاسم بن عبيد اللّه البربهاري مقدم الحنابلة وأهل السنة وللعامة فيه اعتقاد فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول) سار ابن المعتز على هذه الصفة نحو الصحراء ظناً منهم أن من بايع ابن المعتز من الجند يتبعونه فلم يلحقه منهم أحد ولما رأوا ذلك اختفى محمد بن داوود في بيته ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه وانحدر إلى دار أبي عبد اللّه بن الجصاص فاستجار به واستتر أكثر من بايع ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيارون والسفل ينهبون الدولة لأن صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز فهرب أيضاً.

وفي ذلك الوقت خرج المقتدر بالعسكر وقبض على من كان لهم يد في بيعة ابن المعتز فقتلهم وأرسل إلى ابن الفرات فاستوزره. ثم عثر على ابن المعتز فأخذ وحبس إلى الليل وعذب حتى مات وأخذ وزيره محمد بن داوود فقتل ثم أرسل خلف الحسين بن حمدان فلم يدرك وأخيراً رضي عنه المقتدر فحضر إلى بغداد مرضياً عنه.

وانتهت بذلك هذه الفتنة التي بها ابتدأ ضعف الخلافة وسقوط هيبتها واشتد الانتكاس في عهد المقتدر حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام فإن المقتدر حين ولي كان شاباً غراً لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئاً وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم في كل ما يجري من الشؤون وإليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملاً أو وزارة والمقتدر لاه بما هو فيه من اللعب واللهو والسرف لا يفكر في صلاح ولم يعد بيده شيء. ولنصور لكم الحال تماماً نبدأ بذكر الوزراء أيام دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم إذا قدمت رشوة من يريد أن يحل محلهم.

كان أول وزرائه أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات استوزره يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الأول (سنة ٢٩٦) فنظر في الأمور نظر جد واهتمام وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلاً والإيقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضاً لنهب دار وأخذ مال وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز فصادر من صادر وقتل من قتل وكان ممن دخل في هذه الفتنة أبو عمر محمد بن يوسف القاضي فأخذ فيمن أخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديداً رق له منه وسأله حراسة نفس ولده أبي عمر والتصدق عليه به فقال الوزير الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته إلا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلباً لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبي عمر على مائة ألف دينار فأدى منها تسعين ألفاً من جملتها ٤٥ ألفاً كانت

عنده وديعة للعباس بن الحسين وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لئلا يجعل له حديث مجدد.

مضى ابن الفرات في وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً اختلفت عليه الأمور فيها وحدثت الحوادث وحضر عيد النحر من (سنة ٢٩٨) فاحتيج فيه من النفقات إلى ما جرت العادة به وكانت المواد قصرت والمؤن قد تضاعفت وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه في نفقات هذا العيد فمنعه من ذلك وألزمه القيام به من جهته فوجد بذلك أعداؤه الطريق إلى الوقيعة فيه.

فركب في يوم الأربعاء لأربع خلون من ذي الحجة إلى دار الخلافة وهو على غاية السكون والطمأنينة وجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه قبل الوصول إلى السلطان فقبض عليه وعلى كاتبه ومضى القواد للقبض على أسبابه وكتابه فقبضوا عليهم وصار مؤنس الخادم إلى دار الوزارة فوكل بها وأنفذ يلبق إلى دار ابن الفرات فأحاط عليها وتسرع الجند والعوام إلى دور أولاده وأهله فنهبوها وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعظم الأمر في النهب حتى ركب أبو القاسم في الحال بعد العصر في القواد والغلمان وطلب النهاية وعاقب قوماً منهم فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثاني.

محمد بن عبيد الله بن خاقان:

تقلد الوزارة وقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والأقطاع والأملاك والعقار والأموال والغلات وصح له ما مقداره ألف ألف دينار عيناً وستمائة ألف دينار سوى الأثاث والرحل والكراع والجمال.

تولى ابن خاقان فبدأ وزارته بالمصادرات والمضايقات يريد بذلك سد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه وحول من بيت مال الخاصة إلى بيت مال العامة ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار على سبيل القرض ولم يؤد من عوض ذلك سوى أربعين ألف دينار وكان في ابن خاقان إهمال للأمور واطراح للأعمال وتلون في الأفعال فكانت الكتب ترد عليه تصدر جواباتها عنه من غير أن يقف عليها أو يأمر بشيء فيها وإذا أخرجت إليه جوامعها تركها أياماً فلم يطالعها وربما وردت رسائل بحمول وكتب فيها سفاتج بمال فتبقى أياماً لا تفض وإذا قلد عاملاً أتبع بمن يعزله قبل وصوله إلى عمله وأتبع الصارف بمن يصرفه فقيل إنه اجتمع في خان بحلوان سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم ماء الكوفة في عشرين يوماً وبالموصل خمسة قد قلدوا قردى وبازبدى وأنهم اجتمعوا وتشاكوا ما دفعوا إليه وخرج عن أيديهم من نفقاتهم وما بذلوه عن

تقليدهم على أن ينالوا من مال العمل ما قدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخلوا العمل على آخر من ورد من الناحية.

وكان إذا سئل حاجة دق صدره بيديه وقال: نعم وكرامة حتى لقب دق صدره وبسط يده وأيدي أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلات والإطلاقات والإقطاعات والتسويغات وتخفيف الطـوق والمعاملات وأخذ المرافق على إضاعة الحقوق وإسقاط الرسوم فـخفت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال في إخلال الأعمال ووقوف الأحوال وقصور المواد وتضاعف الاستحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند شغباً بعد شغب وتـحبوا على السلطان تـحباً بعد تـحب وأخرج إليهم من بيت مال الخاصة شيئاً بعد شيء، حتى إذا انحل النظام وبان الانتشار وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاور مؤنساً الخادم فيمن يقلده الوزارة فاستقر الأمر على وزارة:

علي بن عيسى:

وكان بمكة بعيداً عما يجري ببغداد خوفاً على نفسه فأنفذ إليه فلما حضر قلد الوزارة في عاشر محرم (سنة ٣٠١) فكانت مدة سلفه سنة واحدة وشهراً وخمسة أيام فسلم إلى الوزير الجديد هو وولداه وأبو الهيثم بن ثوابة. ولما نظر علي في الأمور وجد في أيدي القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنيه وكتابة في فك وإثبات وتقرير وإيجاب ومظالم وتسويغات وإقطاعات ومقاطعات بما مثله يأتي على ارتفاع المملكة وقد كان الخاقاني أذن لهذه الجماعة في التوقيع عنه بكل ما رأوه وكانوا على فاقة وضغطة وخروج من نكبة وعطلة وعرضهم الارتفاق وأخذ ما لاح. تأمل علي بن عيسى هذه التوقيعات فأسقطها وكان منها ما ثبت في الدواوين وما لم يثبت وعمل على إعلام المقتدر ما على الملك وبيت المال من الوهن والنقص بإمضائها فقال له أحد خلصائه: لا تفعل فإن الخليفة على ما تعرفه من التدبر بآراء النساء والقبول من الحاشية وأكثر هذه التوقيعات لهم وللمتعلقين عليهم والملتجئين إليهم فاعدل إلى أن تنظر ما قد أنشىء الكتاب به من ديوان الدار إلى أصحاب الدار فتمضيه وما كان بخلاف ذلك أبطلته فإنك تمضي القليل وتبطل الكثير وتأمن عداوة الناس ومتى استأذنت الخليفة لم تأمن أن يأمرك بإمضائها كلها فتقع في الطويل العريض. فلم يقبل ومضى فطالع المقتدر بالصورة واستأمره في إسقاط التوقيعات وقد كان الحواشي سبقوا إليه بالشكوى فقال له: ارجع إلى الخاقاني وابنه فما عرفاك أنه بتوقيعهما أمضيته وما كان بتوقيع أصحابهما رددته. فأمر بجمع الرقاع وأنفذت إلى الخاقاني وابنه في السجن فأقر الخاقاني بصدور كلها عن إذنه فقامت قيامة علي بن عيسى من ذلك الجواب واضطر إلى إمضاء الأكثر وإسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن له جهة

يشفع له وعرف الحاشية ذلك وشكروا للخاقاني وتعصبوا له وقاموا بأمره كما سيجيء.

كان علي بن عيسى رجلاً عاقلاً متديناً متصوناً متعففاً، عارفاً بالأعمال حافظاً للأموال كثير الوقار والجد بعيداً من التبذل والهزل على شح غالب في طباعه وتجهم ظاهر في أخلاقه وعمد في نظره إلى تخفيف المؤن وحذف الكلف ونقص الخرج المضايقة في الجاري والرزق ورد كثيراً مما وقع به الخاقاني من الإثبات والزيادات فأوحش خواص المقتدر وعاداهم فكثرت السعاية عليه والوقيعة فيه واستثقل أكثر الناس موضعه وضاقت صدورهم بنظره ووقع الشروع في إفساد أمره ورد ابن الفرات.

عرف الوزير ما يجري من ذلك فبدأ بالاستعفاء وكان فيما كتب من رقاعه بذلك إلى السيدة أم المقتدر:

بسم اللّه الرحمن الرحيم أطال اللّه بقاء السيدة وأدام عزها وتأييدها وكلاءتها وحراستها وأسبغ نعمه عليها وزاد في إحسانه إليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه الهنيئة وفوائده السنية عندها وبلغها في سيدنا أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه وأدام له العز والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل أمنيتها ووصل أيام سرورها بعافيته واغتباطها برؤيته ووقاها فيه وفي نفسها وفي الأمراء استودعهم اللّه واستوهبه أيامهم كل سوء محظور ومخوف بمنه ورأفته وصلت الرقعة أعز اللّه السيدة وعرفت ما تضمنت فأما الفتنة التي كانت ملتحمة مع أعظم الأعداء مضرة وأقربهم محلة وأشدهم على المطالبة جرأة فقد تكلفت الإنفاق عليها وقمت بتدبيرها حتى بلغ اللّه أمير المؤمنين والسيدة في جميعها المحبة وانتظمت في صدور الأعداء شرقاً وغرباً الهيبة وما أنفقت مع ذلك من مال بيت الخاصة بعد الذي رددته إليه نصف عشر ما أنفقه محمد ابن عبيد اللّه الخاقاني وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون اللّه على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد باللّه في أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة وقد أنفق المكتفي باللّه وكان من النظر في القليل اليسير على ما عرف به من بيت مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات في أيام المعتضد باللّه وما أقول قولاً يدفع لأن الدواوين تشهد به وحسابات بيوت الأموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصة منذ أيام المعتضد باللّه وإلى هذه الغاية يعلمه وإن سئل عنه صدق هذا مع رفقي بالرعية وعمارتي النواحي المحتلة وإزالتي عنها كل ظلم ومؤونة حتى صارت أيام أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلأت قلوب الرعية هيبة بعد أن كانت تثب على الرؤساء وترمي بالحجارة على ما قيل لي عند اجتيازهم في دجلة.
وأما الاستحقاقات المتأخرة فلست أعرفها وبباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة وما أحسب صنفاً من هذه الأصناف يقدر أن يقول إنه قبض في وقت من

الأوقات قبضاً متصلاً وليس يقول أحد منهم إنه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شيء من رزقه ونزله كذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سبيلهم. وقد حضروا منذ مدة بباب العامة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم ونوظرت فلم تكن لهم حجة في الاستحقاقات وإنما التمسوا الزيادة والنظر والصلة وهذا خارج عن الواجب ولو منع بعضهم فلم يعط شيئاً لكان ذلك واجباً صالحاً ومتى كان الجند يوفون حتى لا يكون لهم شيء متأخر ما كان هذا في زمن من الأزمان وما تركت أن قلت لسيدنا أمير المؤمنين أعزه اللّه في ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أم عيسى مرة بعد مرة فيه وأما ما قيل للسيدة أعزها اللّه في استعفاء فلم أستعف نصاً ولو حملت الرماد على رأسي لما تكرهت ذلك ولا تأبيته وإني لألزم نفسي الصبر على كل نائبة في خدمة سيدنا أمير المؤمنين أيده اللّه وأرى ذلك ديانة ولكني أعز اللّه السيدة أضجر كما يضجر الناس إذا خوطب بما لا يحب وأنا أبلغ جهدي في النصيحة وتأدية الأمانة فإن كان ذلك واقعاً موقعه فهو الذي أقصد وإن كان يظن بي غير ما أنا عليه فهي المصيبة وقد يحرم الإنسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده وما يسعني وما يحل لي أن أؤخر الصدق في جميع الأحوال قاضياً بذلك حق اللّه عز وجل وحق سيدنا أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه وحق السيدة أعزها اللّه وأسأل اللّه أولاً وآخراً أن يصلح لهما أمورهما ظاهراً وباطناً صغيرها وكبيرها ويكفيهما المهم ويسهل الصلاح بهما وعلى أيديهما بمنه وقدرته وجوده وكرمه.

وإنما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبين كيف كان تداخل النساء في سياسة المملكة. إن علي بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر وقد كان مما فعله في وزارته هذه أن أسقط المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر الأهواز وحصن مهدي ونهر السدرة وكان يعترض في هذه المواضع على ما يجهز إلى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بديار ربيعة وأشار على المقتدر بوقف المستغلات بدار السلام وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار والضياع الموروثة بالسواد الجارية في ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار على الحرمين والثغور فقبل رأيه ونصب علي بن عيسى لهذه الوقوف ديواناً سماه ديوان البر. ولما كان بمكة وجد الماء ضيقاً على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة إليها فابتاع عدداً كبيراً من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع من السخرة وحظرها وحفر بئراً عظيمة فخرجت عذبة شروباً وسماها الجراحية. وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الرفق به إلى أهل الضعف والمسكنة.

ومع كل ما أجراه من الإصلاح فإن حكومة النساء لم تتركه هادىء البال. قرب عيد الأضحى واحتيج إلى ما جرت العادة بإطلاقه للحرم فجاءته أم موسى القهرمانة في آخر ذي القعدة مخاطبة

في ذلك ومقررة للأمر فيه وكان محتجباً فلم يأذن لها حاجبه واعتذر لها عذراً لطيفاً وصرفها صرفاً جميلاً فغضبت وانصرفت وأعلم علي بن عيسى خبرها في حضورها وانصرافها فأنفذ إليها واستعذرها فلم تعذر وصارت إلى المقتدر بالله وإلى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدى ذلك إلى القبض عليه في يوم الاثنين ثامن ذي الحجة (سنة ٣٠٤) فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و٢٨ يوماً.

وفي يوم القبض عليه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه إلى دست الوزارة ورد عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتابه وأسبابه من الضياع والأموال فارتجع ما كان حصل في أيدي الناس القواد وخواص الدولة من ذلك وكان قد تعهد وهو في السجن أنه متى رد للوزارة أطلق المولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التغاريق مثل ما كان يطلقه في وزارته الأولى تماماً وإدراراً وأن يحمل إلى المقتدر كل يوم ألف دينار وإلى السيدة والأمراء (٥٠٠) دينار فوفى بما تعهد به.

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطاً وضياعها بمال يخرجه ضمنه إياها علي بن عيسى فلما وزر ابن الفرات كان يعلم أن حامد بن العباس يربح منها ربحاً كثيراً فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه إلى غيره وكان بواسط قسيم الجوهري يشرف للسيدة أم المقتدر على ضياعها بواسط ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيـطه فاتفقا على أن قسيماً يسفر له في نيل الوزارة فذهب قسيم إلى بغداد وخاطب نصراً الحاجب في ذلك وأطمعه في حامد وملأ يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيدة أيضاً ووافق هذا القول والسعي سوء رأي نصر الحاجب في ابن الفرات وخوفه منه وكثرة الوقيعة فيه وقول الناس إنه قد قلد ولده الدواوين وأقاربه الأعمال إلى غير ذلك من الوشايات التي تروج في حكومة النساء فاتفق الأمر على إصعاد حامد وتوليته الوزارة فأرسل إليه فحضر وفي يوم حضوره قبض على ابن الفرات يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الأولى (سنة ٣٠٦) وكانت مدة وزارته هذه الدفعة سنة وخمسة أشهر و١٩ يوماً.

حامد بن العباس:

لم يكن لحامد من الخصال ما يؤهله للوزارة فظهر ذلك لحاشية المقتدر فعابوه عنده ونسبوه إلى الجهل بأمور الوزارة فأمر بإطلاق علي بن عيسى من محبسه وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه في الأمور ويصدر عن رأيه ثم إنه استبد بالأمر دون حامد ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما:

هـــذا وزيـــر بـــلا ســـواد وذا ســـواد بـــلا وزيـــر

ثم إن حامداً أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله ووكل بمناظرته علي بن أحمد الماذرئي ليصحح عليه الأحوال فلم يقدر على إثبات الحجة فانتدب له حامد وسبه ونال منه وقام إليه فلكمه وكان حامد سفيهاً فقال له ابن الفرات: أنت على بساط السلطان وفي دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من بيدر تقسمه أو غلة تستفضل في كيلها ولا مثل أكار تشتمه ثم قال لشفيع اللؤلؤي: قل لأمير المؤمنين عني إن حامداً إنما حمله على الدخول في الوزارة وليس من أهلها إنني أوجبت عليه أكثر من ألفي ألف دينار من فضل ضمانه وألححت عليه في مطالبته بها فظن أنها تندفع عنه بدخوله في الوزارة وأنه يضيف إليها غيرها فاستشاط حامد وبالغ في شتمه فأنفذ المقتدر فأقام ابن الفرات من مجلسه ورده إلى محبسه وقال علي بن عيسى ونصر الحاجب لحامد: قد جنيت علينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلت بابن الفرات وأيقظت منه شيطاناً لا ينام.

ولما رأى حامد أنه لا عمل له مع علي بن عيسى شرع في عمل له آخر فضمن أعمال الخراج والضياع الخاصة والعامة والمستحدثة والفراتية بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان واستأذن في الانحدار إلى واسط ليدبر أمر ضمانه الأول فأذن له فانحدر واسم الوزارة عليه وعلي بن عيسى يدبر الأمور وأظهر حامد زيادة ظاهرة في الأموال فسر المقتدر وبسط يد حامد في الأعمال حتى خافه علي بن عيسى ثم إن السعر غلا ببغداد فثارت العامة والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر بإحضار حامد بن العباس فحضر فعاد الناس إلى شغبهم فأنفذ حامد جنداً لمنعهم فقاتلهم العامة وأخرقوا الجسرين وأخرجوا المحبسين من السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئاً فأنفذ المقتدر جيشاً قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بأبواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا وضربوا بالمقارع وقطعت أيدي من عرف بالفساد فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التي لحامد ولأم المقتدر وغيرهما وبيع ما فيهما فرخصت الأسعار وسكن الناس وأفهم علي بن عيسى المقتدر أن سبب غلاء الأسعار إنما هو ضمان حامد لأنه منع من بيع الغلال في البيادر وخزنها فأمر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر علي بن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس.

ضج الأولاد والحرم والخدم والحشم إلى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم فإن علي بن عيسى كان يؤخرها فإذا اجتمع عدة شهور أعطاهم بعضاً وأسقط بعضاً وحط من أرزاق العمال في كل سنة شهرين فزادت عداوة الناس له وضجر المقتدر من هذه الاستغاثات وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد وليس له من الأمر شيء غير لبس السواد وأنف من اطراح علي بن عيسى لجانبه فاستأذن حامد وسار إلى واسط. وجرى بين حامد وبين مفلح الأسود كلام فقال حامد: لقد

هممت أن أشتري مائة خادم أسود وأسميهم مفلحاً فحقدها عليه مفلح وكان خصيصاً بالمقتدر فسعى ومعه المحسن بن الحسن بن الفرات للحسن بالوزارة وضمن أموالاً جليلة وكتب على يده رقعة يقول إن تسلم الوزير وعلي بن عيسى وابن الحواري وشفيعاً اللؤلؤي ونصراً الحاجب وأم موسى القهرمانة والمادرائيين يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار وهذه رشوة عظيمة لا يستهان بها فأصاب ذلك السعي وقبض على علي بن عيسى في ربيع الآخر (سنة ٣١١) وأطلق ابن الفرات وعهدت إليه وزارته الثالثة وسمع حامد بالخبر واختفى ببغداد ثم لبس زي راهب وخرج من مكانه الذي اختفى فيه ومشى إلى نصر الحاجب وسأله أن يوصل حاله إلى الخليفة فدعا نصر مفلحاً فلما حضر ورأى حامداً قال: أهلاً بمولانا الوزير أين مماليكك السودان الذين سميت كل واحد منهم مفلحاً ولم يكن لحضوره نتيجة تفيده بل سلم إلى ابن الفرات الوزير فاستلمه المحسن ابنه وكان وقحاً سيىء الأدب ذا قسوة شديدة وكان الناس يسمونه الخبيث فعذب حامداً بأنواع العذاب وأخيراً أنفذه إلى واسط ليبيع أملاكه بها ثم دس من سمه في الطريق فمات وظهر في هذه الوزارة من المحسن شر عظيم لكثرة ما نكب الناس وصادرهم وعذبهم بأنواع العذاب لاستخراج أموالهم حتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة وفيهم كبار الدولة ورؤسائها وكتاب دواوينها وصادف ذلك أن وقع الشر العظيم من القرامطة بالحجاج فتضاعفت المصائب على أهل بغداد رؤساهم تقتل وحجاجهم تنهب وتموت عطشاً ولا مدافع ولا محام فكثر الإرجاف على ابن الفرات وأخيراً صدر الأمر بالقبض عليه من ثامن ربيع الأول (سنة ٣١٢) بعد أن استقر في هذه الوزارة الأخيرة عشرة أشهر وثمانية عشر يوماً فقبض عليه ثم قبض على ابنه المحسن وتولى الوزارة.

عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان:

بعد أن تكفل بمصادرة ابن الفرات بألفي ألف دينار فكان ذلك سبباً لتضييقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن بأنواع العذاب ليجيب إلى مصادرة يبذلها فلم يجبهم إلى دينار واحد وقال: لا أجمع لكم بين نفسي ومالي واشتد عليه العذاب بحيث امتنع عن الطعام والشراب فلما علم بذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة ثم اتفق رجال الحاشية على قتلهما فذبحوهما كما تذبح الغنم وكان عمر ابن الفرات حين قتل (٧١ سنة) وعمر ولده المحسن (٣٣ سنة) وكان ابن الفرات يقول إن المقتدر يقتلني. عاد يوماً وهو مفكر كثير الهم فقيل له في ذلك فقال: كنت عند أمير المؤمنين فما خاطبته في شيء من الأشياء إلا قال لي نعم فقلت له الشيء وضده ففي كل ذلك يقول نعم فقيل له: هذا لحسن ظنه بك وثقته بما تقول، فقال: لا واللّه ولكنه أذن لكل قائل وما يؤمنني أن يقال له يقتل الوزير فيقول نعم واللّه إنه قاتلي. وكان ابن الفرات كريماً ذا رياسة وكفاية في عمل حسن السؤال والجواب ولم يكن له إلا ولده المحسن.

لم يكن الوزير الخاقاني بأحسن حظاً من غيره من الوزراء فقد وجد من يساوم عليه فرفع إلى المقتدر رقعة من أبي العباس الخصيبي يذكر معايبه ومعايب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضياع الأموال وطمع العمال ثم إن الوزير مرض فوقفت الأموال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل إليه المقتدر في ذلك فلم يقدر على شيء فعزل في رمضان (سنة ٣١٣) وولي الوزارة.

أبو العباس الخصيبي:

وكان هذا الوزير الجديد لا يصلح لعمل فإنه كان شروباً فكان يصبح سكراناً لا قصد فيه لعمل وسماع حديث وكان يترك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها إلا بعد مدة ويهمل الأجوبة عنها فضاعفت الأموال وماتت المصالح ثم إنه لضجره وتبرمه بها وبغيرها من الأشغال وكل الأمور لنوابه وأهمل الاطلاع عليهم فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم ولما ظهر هذا الاختلال أشير على المقتدر بعزله وولاية علي بن عيسى فقبض عليه في ذي القعدة (سنة ٣١٤) بعد وزارة مدتها سنة وشهران وأخذ ابنه وأصحابه فحبسوا واستدعى علي بن عيسى من مكة وكان بها مقيماً ليدبر أمر الوزارة وأمر عبيد اللّٰه بن محمد الكلوذاني بالنيابة عن علي بن عيسى إلى أن يحضر فسار علي ابن عيسى فحضر بغداد في أول (سنة ٣١٥) وبه صلحت الأموال نوعاً وكان من أقوم الأسباب في ذلك أن الخصيبي كان قد اجتمع عنده المصادرين وكفالات من كفل منهم وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب فنظر فيها علي وأرسل في طلب تلك الأموال فأقبلت إليه شيئاً بعد شيء فأدى الأرزاق وأخرج العطاء وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح ومن أولاد المرتزقة من هو في المهد فإن آباءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنيين والمساخرة والندماء وغيرهم وتولى الأعمال بنفسه ليلاً ونهاراً واستعمل العمال في الولايات واختار الكفاة ومع ما أظهره من الهمة وظهر على يده من الصلاح لم يكن ممن يعجب حاشية المقتدر لأنه كان يرى أن الإصلاح لا يكون إلا مع الاقتصاد في النفقة ونفقة الخدم والحرم ولا سيما أم المقتدر كانت هائلة فلا بد من الاقتصاد فيها ولما علموا بذلك شرعوا يشون به فلما أحس علي بذلك استعفى من الوزارة واحتج بالشيخوخة وقلة النهضة فأمره المقتدر بالصبر وقال: أنت عندي بمنزلة والدي المعتضد فألح في ذلك ومع أن الرجل كان يحتيل ليخرج من هذه المضايق بسلام أبى سوء الحال في تلك الأزمنة وتغلب النساء والحاشية أن ينيله هذه الراحة في خروجه فأمر المقتدر في منتصف ربيع الأول (سنة ٣١٦) بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمٰن وولي الوزارة:

أبو علي بن مقلة:

وكما كانت لأبي علي يد ماهرة في الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة في أخذ الرشاء

obeikandl.com

على التولية والعزل وكان بينه وبين أكبر القواد مؤنس المظفر مودة فلذلك كان يثبت قدمه كلما قاربها الزلل حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فدعا ذلك إلى عزل ابن مقلة في آخر جمادى الأولى (سنة ٣١٨) وقبض عليه بعد سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام واستوزر:

سليمان بن الحسن:

ولما لم يكن المقتدر ميالاً لسليمان وإنما رضيه تبعاً لرأي مؤنس أمر علي بن عيسى بالاطلاع على الدواوين وأن لا ينفرد عنه سليمان بشيء وصودر ابن مقلة بمائتي ألف دينار.

لم تطل هذه الوزارة كثيراً لأن الأحوال ضاقت على سليمان: كثرت عليه المطالبات ووقفت وظائف السلطان واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعادية والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك. وكانت وزارته غير متمكنة لأن علي بن عيسى كان معه على الدواوين وسائر الأمور وأفرد علي بن عيسى بالنظر في المظالم واستعمل على ديوان السواد غيره فانقطعت مواد الوزير فإنه كان يقيم من قبله من يشتري توقيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ما هم عليه من الخدم فكان يعطيهم نصف المبلغ وكذلك إدارات الفقهاء وأرباب البيوت فكانت أحواله رديئة وأدى ذلك إلى القبض عليه لثلاث بقين من رجب (سنة ٣١٩) بعد سنة وشهرين واستوزر:

أبو القاسم الكلوذاني:

ولم تكن وزارته أيضاً عن رغبة المقتدر بل عن رأي مؤنس وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل والغباوة وذلك أنه كان ببغداد إنسان يعرف بالدانيالي وكان زواقاً ذكياً محتالاً وكان يعتق الكاغد ويكتب فيه بخطه ما يشبه الخط العتيق ويذكر فيه إشارات ورموزاً يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة فيحصل له بذلك رفق كثير. توصل إلى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه في كتاب ووضعه وعتقه وذكر فيه علامات وجهه وما فيه من الآثار ويقول إنه يوزر للخليفة الثامن عشر من بني العباس وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعادي وتتغمر الدنيا في أيامه وجعل هذا كله في جملة كتاب فيه ذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك إلى دانيال وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الأسود فأخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له: أتعرف في الكتاب من هو على هذه الصفة فقال: ما أعرف إلا الحسين بن القاسم فقال المقتدر: صدقت وإن قلبي ليميل إليه فإن جاءك رسول برقعة منه فاعرضها علي واكتم حاله ولا تطلع على أمره أحداً وذهب الدانيالي إلى الحسين وعرفه الخبر فكتب رقعة إلى مفلح فأوصلها إلى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن أنه يقوم بالنفقات من غير

أن يطلب شيئاً من بيت المال الخاص فعزل الكلوذاني في رمضان (سنة ٣١٩) بعد شهرين وثلاثة أيام وتولاها:

الحسين بن القاسم:

ولما جاء لم يكن من أهل الوزارة ولا من ذوي التدبير فضاقت عليه الأحوال وكثرت الإخراجات فاستسلف جملة وافرة واطلع المقتدر على اضطرابه فعزله في ربيع الآخر (سنة ٣٢٠) بعد سبعة أشهر واستوزر:

أبا الفتح الفضل بن حجر هو آخر وزرائه:

تولى الوزارة في عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثاً وكانت تنال بالرشوة ودخل في أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ولم يكن الصالح منهم يبقى في العمل كثيراً لأن مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حوبوا بالأموال الكثيرة التي بها تفسد المالية وتختل موازنتها فمتى حصل التقصير في ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثاني وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها في نظر العامة ولا في نظر متغلبي الأطراف حرمة. وليس ذلك كل ما أسقط أمر الدولة في عهد المقتدر بل أضيف إلى ذلك قوة القرامطة وما كان منهم من الإخلال بالأمن في العراق والحجاز.

أمر القرامطة:

كان رئيس القرامطة بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي فقتل (سنة ٣٠١) بعد أن استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين فولى بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابي وكانت له غزوات متتابعة إلى جهة البصرة يريد الاستيلاء عليها وأشد غزواته لها (سنة ٣١١) فإنه سار إليها في ألف وسبعمائة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ووضع السيف في أهلها وأقام بها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ثم عاد إلى بلده ومنها توجه إلى طريق الحاج ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فنهبهم واتصل الخبر بباقي الحاج وهم بفيد فأقاموا بها حتى فني زادهم فارتحلوا مسرعين إلى طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوا جمال الحجاج جميعها وما أرادوا من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ثم عاد الجنابي إلى هجر وترك الحاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر وكان وصوله في الوقت الذي قتل فيه المحسن بن الفرات من قتل من المصادرين

فازدوجت المصيبة وكان ابن الفرات يتهم بالتشيع فذكر بكل قبيح على ألسنتهم.

اضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فأطلقهم وطلب ولاية البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر فسار من هجر يريد الحاج وكان جعفر بن ورقاء الشيباني متقلداً أعمال الكوفة وطريق مكة فلما سار الحاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفاً من أبي طاهر ومعه ألف رجل من بني شيبان وسار معهم أيضاً قواد السلطان ومعهم ستة آلاف رجل فلقي أبو طاهر القرمطي جعفراً الشيباني فقاتله جعفر فبينما هو يقاتله إذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه فانهزم من بين أيديهم فلقي القافلة الأولى فردها إلى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهاراً فيقيم في الجامع إلى الليل ثم يخرج فيبيت في عسكره وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك ثم عاد إلى هجر وكان أهل بغداد قد خافوا أن يهجم القرامطة عليهم.

وفي (سنة ٣١٥) سار أبو طاهر نحو الكوفة فأمر المقتدر يوسف بن أبي الساج أن يسير إليها لحمايتها من القرامطة وقد أعد له بالكوفة الأنزال له ولعسكره فسبقه إليها أبو طاهر واستولى على كل هذه المؤن وكانت شيئاً كثيراً ووصل يوسف بعد أبي طاهر بيوم واحد فلما وصل أرسل إلى القرامطة يوم الجمعة يدعوهم إلى طاعة المقتدر فإن أبوا فموعدهم الحرب يوم الأحد فقالوا: لا طاعة علينا إلا اللّه والموعد بيننا للحرب بكرة غد فلما كان الغد رأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم وقال: إن هؤلاء الكلاب لا بقاء لهم بعد ساعة في يدي وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل اللقاء تهاوناً بهم ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض واستمر القتال إلى غروب الشمس فلما رأى أبو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومعه جماعة يثق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقهم فانهزموا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه وورد الخبر بذلك إلى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان وجاء المنهزمون من وقعة الكوفة إلى بغداد ووصل الخبر بأن القرامطة قد ساروا إلى عين التمر فأنفذ من بغداد خمسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش إلى الأنبار لحفظها ومنع القرامطة من العبور هنالك. ثم إن القرامطة قصدوا الأنبار ولما وصلوها نزلوا غربي الفرات لأن أهل الأنبار كانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة فجاءوه بسفن عقدها وعبر عليها نحو ثلثمائة من أصحابه فقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة واستولوا على مدينة الأنبار وعقدوا الجسر وعبر عليه أبو طاهر ولكنه خلف عظم جيشه في البر الغربي ولما ورد الخبر بعبور أبي طاهر إلى الأنبار خرج نصر الحاجب بجيش جرار

فلحق بمؤنس فلحق المظفر فاجتمعا في نيف وأربعين ألف مقاتل وكان هذا الجيش مضطرباً في مسيره قد تمكن الخوف من قلب أجناده وكان يمكنهم لو دبروا جيشهم تدبيراً حسناً أن يأخذوا أبا طاهر الذي كان قد عبر وترك جنده ولكنهم تهاونوا حتى عاد إلى جيشه ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحو ستة آلاف أمرهم بالعبور ليغنموا معسكر القرامطة ويخلصوا يوسف ابن أبي الساج ففشلوا وانهزموا أمام شجاعة القرامطة وكانت نتيجة ذلك أن أمر أبو طاهر بقتل يوسف وجميع الأسرى وكانت عدة القرامطة في هذه الخرجة (٢٧٠٠) ولما علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة قال لعن اللّه نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن (٢٧٠٠) وجاء إنسان إلى علي بن عيسى الوزير وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار فأحضره وسأله فاعترف وقال: ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ولا بد للّه من حجة في أرضه وإمامنا المهدي محمد ابن فلان ابن فلان ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالرافضة والاثنا عشرية الذين يقولون بجهلهم إن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم البعض فيقول قد رأيته وسمعته وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه. فقال الوزير: قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك؟ فقال: وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع مني أن أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك فأمره فضرب ضرباً شديداً ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاث أيام.

أما أبو طاهر فإنه سار من الأنبار وعثى في أرض الجزيرة نهباً وقتلاً إلا من اعتصم منه بالأمان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثراً وتخاف أن تقدم عليه فلما تم له ما أراد من الجزيرة عاد إلى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد أن أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم.

وكانت هذه الانتصارات سبباً في ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفاً فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلاً يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها في جمع كثير وولوا أمرهم رجلاً يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون إلى المهدي وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بها داراً سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينتهبون ويقتلون ويسبون. فأرسل المقتدر إلى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافيا البصري فأوقع كل منهما بمن أرسل إليه من القرامطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في**

الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (١) فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفى اللّه الناس شرهم وإن كان كل ذلك مما يعجل بخراب القرى وإتلاف المزارع.

وفي (سنة ٣١٧) فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى وذلك أنه سار بجنده إلى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام، بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فسألوه في أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه وقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة. ولم يحصل في التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد حتى أن المهدي عبيد اللّه العلوي لما علم ذلك كتب إلى أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول: قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة ولما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده وقال: إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم.

المتغلبون وما كان منهم:

في عهد المقتدر اشتد سلطان المتغلبين بأطراف المملكة وهذه نتيجة طبيعية لما أصاب الدولة من الخلل.

ففي الأندلس قام رجل الدولة الأموية عبد الرحمان الناصر وتسمى باسم أمير المؤمنين لأنه لم يعد هناك ما يراعيه رجال الدولة الأموية من أمر الخلافة الإسلامية ببغداد لانحطاط شأنها ولعب الفساد بها وخيانة الوزراء فيها وكان عبد الرحمان قد مكنه عقله الواسع وفكره الثاقب من العلو وبعد الصيت حتى رهبته ملوك الإفرنجة والروم وهادوه وأرسلوا إليه السفراء وكذلك فعل هو معهم.

وفي إفريقية قامت الدولة العلوية ومحت في طريق غلبتها دولة الأدارسة من المغرب الأقصى والأغالبة من إفريقية وجعلت مقرها مدينة المهدية التي أسسها عبيد اللّه المهدي بالقرب من القيروان وكانت همته بعد ذلك موجهة إلى الاستيلاء على مصر فكان يناوشها بالجنود ولكنه لم يتهيأ له الاستيلاء عليها.

(١) سورة: القصص، الآية: ٥.

وفي البحرين وما صاقبها اتسع سلطان القرامطة واستقلوا بملك تلك البلاد وكانت العراق دائماً على خوف مستمر منهم وقطعوا طريق الحج حتى كان حجاج العراق قد اتخذوا لهم طريقاً آخر إلى مكة على الموصل ثم الشام ثم مكة.

وفي خراسان وما وراء النهر استقر ملك الدولة السامانية وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر كما سيأتي في تاريخهم.

وفي الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولكن لم يتمكن سلطانهم في عهد المقتدر أما ما فعله الروم بثغور المسلمين في هذا العهد فهو في غاية الشنعة ففي (سنة ٣٠٣) أغاروا على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم ولم يكن أمام الروم من الجيوش من يصدهم لأنهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التي كانت متوالية.

وفي (سنة ٣٠٥) وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء فأكرما إكراماً كثيراً وأدخلا على الوزير وهو في أكمل أبهة وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم إنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر إلى طلب ملك الروم من الفداء وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه وسير معه جمعاً من الجنود وأطلق لهم أرزاقاً واسعة وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين وسار مؤنس والرسل وكان الفداء على يديه.

ولم يدم هذا الصفاء طويلاً بل عادت الحروب والغارات من الطرفين وكانت سجالاً وكلما كان يجتمع عند الطرفين أسرى يحصل الفداء كالعادة.

وفي (سنة ٣١٣) كتب ملك الروم إلى أهل الثغور الإسلامية يأمرهم بحمل الخراج إليه فإن فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال إنني صح عندي ضعف ولاتكم فلم يفعلوا فسار إليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية (سنة ٣١٤) فأخربها وسبى منها ونهب وأقام فيها ستة عشر يوماً ولما رأى أهل ملطية ما حل بقراهم من التخريب قصدوا بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا بغير فائدة.

وفي (سنة ٣١٥) خرجت سرية من طرطوس إلى بلاد الروم فوقع عليها العدو وأسروا من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبراً. وفيها سار الدمستق في جيش عظيم من الروم إلى مدينة دبيل وهي قاعدة أرمينية وكان معه دبابات ومجانيق ومعه مزارق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد من شدة النار فكان ذلك أشد شيء على المسلمين حتى أصيب الرامي بسهم من سهام

المسلمين فخفت الشدة وكان الدمستق يجلس على كرسي عال يشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصبر لهم المسلمون حتى وصلوا إلى سور المدينة فنقبوا فيها نقوباً كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً حتى أخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم عشرة آلاف قتيل. وكانت هذه السنة سنة نجاح المسلمين على الروم.

وفي (سنة ٣١٩) اشتدت وطأة المسلمين على الروم وغزوا بلادهم حتى بلغوا عمورية وأنقرة والفضل في ذلك كله يرجع إلى قائد عظيم من غلمان المقتدر اسمه ثمل وكان والي الثغور فأمكنه بما أوقعه من الرعب في قلوب أعدائه أن يستعيد بعض الهيبة للدولة بعد أن كادت تذهب من صدر الروم بمرة.

وعلى الجملة فكانت خلافة المقتدر في جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية لأنه حكم فيها النساء والخدم وبذر في الأموال تبذيراً مفظعاً وكان يعزل الوزراء ويولي غيرهم بما يقدم من الرشاء له ولأمه ولقهرمانته ولخدمه ولا يأخذ الوزارة بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على ما دفعه فكان جل هم الكثير منهم أن يسد حاجته أولاً ثم حاجة من ولاه، لا يسألون أجاءت تلك الأموال من ظلم أو عدل؟ وهكذا نهاية الفساد في الدولة وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها.

قتل المقتدر:

كان في دولة المقتدر قائدان هما في أرفع الدرجات أولهما مؤنس المظفر وهو القائد العام للجيوش وعليه المعول في تسييرها ويليه في المرتبة محمد بن ياقوت وكان بينهما شيء من المنافسة.

ففي (سنة ٣١٩) قوي أمر محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة وضم إليه رجال فقوي بهم فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة وقال: هذا شغل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول فأجابه المقتدر وصرف محمداً عن الحسبة وصرف ابنه عن الشرطة وأبعدها عن الحضرة فأخرجا إلى المدائن حسبما طلبه مؤنس وولى بدلهما إبراهيم بن رائق وأخاه محمداً الحسبة والشرطة وهذا كان بدء الوحشة بين المقتدر ومؤنس ومتى وجدت الوحشة ساءت الظنون وكان للوهم في النفوس أكبر الآثار.

بلغ مؤنساً أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جماعة من القواد في التدبير عليه فتنكر له مؤنس وطلب من المقتدر عزله ومصادرته فأجاب إلى عزله ولم يصادره فلم يقنع مؤنس بذلك فبقي الحسين في الوزارة وكتب إلى هارون بن غريب أحد القواد وهو بدير العاقول أن يحضر إلى بغداد وكذلك كتب إلى محمد بن ياقوت يستقدمه فزادت الوحشة عند مؤنس وصح عنده أن

الحسين يسعى في التدبير عليه ثم صح عنده أنه قد جمع الرجال والغلمان الحجرية في دار الخليفة فأظهر الغضب وذهب نحو الموصل وأرسل غلاماً له إلى المقتدر برسالة فطلب الوزير منه أن يسلمها إليه فأبى فسبه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلثمائة ألف دينار وأخذ خطه بها وحبسه ونهب داره فلما بلغ مؤنساً الخبر سار نحو الموصل في أصحابه ومماليكه وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم وزاد في محل الوزير عند المقتدر فلقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدينار والدرهم وتمكن من الوزارة وولى وعزل.

أما مؤنس فإنه استولى على الموصل من يد بني حمدان واستولى على أموالهم وديارهم وخرج إليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لإحسانه كان إليهم وعاد إليه ناصر الدولة بن حمدان فصار معه. فلما اجتمعت إليه العساكر انحدر إلى بغداد في شوال (سنة ٣٢٠) فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالاً عظيماً إلا أنه لم يشبعهم وسير العسكر لمقابلة مؤنس في طريقه فلم يقدروا على رده فجاء حتى نزل بباب الشماسية فحل الخوف في قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل إلى واسط فرده عن ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم إليه فرجع إلى قوله وهو كاره ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل بعيد من المعركة فأرسل قواد أصحابه إليه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى وهو لا يريم مكانه فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل وصوله إليهم فلقيه علي بن بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الأرض وقال له: أين تمضي ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فشهروا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذ جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفاً إلى أن مر به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل (٣٨ سنة) ثم تقدم مؤنس وأنفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب.

١٩ ـ القاهر

هو أبو محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد بربرية اسمها قتول وبويع بالخلافة يوم أن قتل المقتدر في (٢٨ شوال سنة ٣٢٠) (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) ولم يزل خليفة حتى خلع في (٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢) (٢٣ إبريل سنة ٩٣٤) فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام.

ومعاصروه من الملوك والمتغلبين هم معاصرو المقتدر ما عدا أحمد بن إسماعيل الساماني.